أعرف شخصين، مرا بظروف عسيرة، عاشا فقيرين معدمين إلى سن الأربعين، وفي موجة ارتفاع العقار أقبلت عليهما الدنيا مبتسمة، وحظيا بأموال نقلتهم من حال الفقر والبؤس إلى مستوى الأثرياء، ومرت سنوات قليلة خسرا أموالهما، ولم يستطيعا أن يستعيدا ما خسره في أزمة العقارات التي اجتاحت السوق في عام 2008. عبثا حاول الرجلان أن يعودا إلى فئة الأثرياء، بل باعا سيارتيهما الفاخرتين من فئة الليكزس واستبدلها بسيارة من نوع وجودة أقل. عادا إلى نادي المفلسين، وعندما يتحدث أحدهما عن الظروف التي دفعته إلى الحضيض بعد أن كان في القمة، يكيل التهم ويسوق التبريرات ويستخدم كل الحيل النفسية التي تظهره ضحية وتقنع السامعين بأن خسارته كانت بسبب تآمر أعدائه عليه، وأن التجار الكبار لن يسمحوا لشخص مثله بأن يبقى ثريا. وهناك من قاد حملة ضده، وهناك من تآمر عليه، وكاد له حتى خسر كل أمواله. تكثر أعذارهما والنتيجة واحدة، إفلاس عقلي ومالي. ما السبب؟ إنها المعتقدات، فهناك من الناس من يتبنى معتقدات داعمة ومحفزة، وهناك من الناس من يسجن عقله ومشاعره وتصرفاته في زنزانة المعتقدات السلبية. وضحايا المعتقدات السلبية كل يوم في ازدياد، لأن الناس يستمعون إلى الأخبار المخيفة ويصغون إلى الإشاعات والأكاذيب، ويقرأون الأخبار السيئة ويبحثون عن الدراما، ويشاهدون أخبار تقلبات الطقس وحدوث المصائب والكوارث. أظهرت الدراسات النفسية التي تم اجراؤها في جامعات ومراكز بحث علمي متقدمة أن الناجحين من الناس في مختلف المجالات يشعرون غالبا بالتحفيز، وينتابهم الحماس والرغبة للعمل والمحاولة والابداع ويفكرون باتجاه النتائج ويقبلون على أعمالهم بشغف، ويطورون قدراتهم، ويتبنون معتقدات داعمة ويشعرون بالسعادة بنسب مرتفعة مقارنة بأولئك السلبيين الذين يتعرضون للفشل والإحباط، ويتوقعون الأسوأ ويلقون بالمسؤولية على الظروف ويتهمون الناجحين، ويلعبون دور كبش الفداء أو الضحية. عندما أناقش بعض هؤلاء الذين ينشرون التفكير السلبي ويدافعون عن المصائب أتذكر قصة طريفة لرجل طلبت منه زوجته بأن يذهب إلى المطبخ ويحضر لها ملحا من المطبخ، وبما أنه كان مشغولا بقراءة صحيفة، فقد أجابها أنه لا يعرف مكان الملح، لكنها أصرت عليه وهي تقول: إنه هناك في المطبخ ستجده بكل سهولة. لكنه ظل يكرر لن أعثر عليه، إنني لا أعرف مكانه. وعندما أصرت عليه ولم تدع له فرصة، ذهب على مضض إلى المطبخ وبدأ بحثا شاقا ولكنه لم يعثر على الملح. فذهبت زوجته فورا إلى المطبخ ووجدت الملح على الطاولة التي أمامه. ومثل حالة هذا الرجل يقع الكثير من الناس ضحايا لمعتقداتهم السلبية، تبدد أي بارقة للأمل في تحسن ظروفهم وأوضاعهم، وبدون أن يدرك هؤلاء خطورة سعيهم بالسلبية واتهامهم للغير، يساهمون في نشر ثقافة أن الأمور العامة والشخصية تسير من أسوأ إلى أسوأ، بينما يعشق المتفائلون الحياة، ويحبون الحياة، ويبحثون عن الحلول و لا يستسلمون مطلقا لإشاعات التثبيط. يقع كثير من الناس في المجتمع ضحايا لهذه الثقافة التي عمي أبصارهم وتصرف انتباههم عن الفرص والخيارات الكثيرة التي تتيح المجال لكل من يرغب في تحسين مستوى حياته وتنويع مصادر دخله. إن النجاح في تحسين أي شخص لمستوى حياته مقيد بما يحمل من معتقدات وأفكار، فهي العصا التي يسير بها إلى النور أو إلى الهاوية.